

التفسير المختصر - سورة الشعرا (٢٦) - الدرس (١٥-٦) : تفسير الآيات ١٠٥ - ١١١ ،  
كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوه نوح ألا تتقون.....

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٩-٠٧-١٩٩٥

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الإخوة الكرام، في قصة نوح عليه السلام مع قومه التي وردت في سورة الشعرا بدءً من الآية الخامسة بعد المائة، قال تعالى:

﴿كَذَّبُوا قَوْمُ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبِعْكَ الْأَرْذُلُونَ (١١١)﴾

[سورة الشعرا]

بيت القصيدة: أنؤمن لك وقد اتبعت الأرذلون ! طبعاً كلمة الأرذلون ليس مقصودها المعنى الذي نفهمه، فالأرذلون معناها أنهم فقراء، عدي بن حاتم كان ملكاً في الجزيرة العربية، ووفقت أممه سفانة أسيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأت أخته، ومن كماله، وكيف كان يطعم الجائع ؟ ويكسو العريان ؟ ويفك الأسير ؟ ويرحم الصغير ؟ فتصحت أخاهما أن يذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقالت له: إن يكن ملكاً ينالك من خيره، وإن يكننبياً فليسابق فضله، فجاء عدي بن حاتم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، سأله النبي عليه الصلاة والسلام: من الرجل ؟ فقال: عدي بن حاتم ! فأخذته إلى البيت تكريماً له، وفي بيته النبي أعطاه وسادة من أدم محسنة به، وقال: اجلس عليها، فقلت: أنت فقال: بل أنت، قال: فجلست عليها، وجلس رسول الله على الأرض فقال: عليه الصلاة والسلام: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك روسيا ؟ دين بين النّصريّة والصّابريّة، فقال: بلى، فقال: أو لم تسر في قومك بالمرّباع ؟ قال: قلت بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ! - دققوا في المناقشة - أنت تختلف مبادئ دينك، والإنسان ينسجم ما الذي يعتقد قال: فعلمْتُ أنهنبي مُرسَلٌ يعلم ما يجعل، فقال عدي بن حاتم: في الطريق استوقفته امرأة فقيرة تكلم النبي في حاجتها، ووقف النبي عليه الصلاة والسلام طويلاً فقلت في نفسي: ما هذا بأمر ملك، قال: إيه يا عدي يا بن حاتم، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ! فقد كان أصحاب النبي فقراء إلى درجة غير محدودة، وكان أهل الفجور والعصيان، يأكلون أطيب الطعام، وهم أقوىاء متكثرون فالنبي قال له: لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين

ما ترى من حاجتهم، ويَمِّن الله، لِيُوشِكَنَّ المَالَ أَنْ يَفِيضاً فِيهِمْ حَتَّى لا يَوْجَدُ مَنْ يَأْخُذُهُ ! فَلَمَّا جَاءَتْ غَنَائِمَ كِسْرَى سَيِّدَنَا عَمَرَ قَبَّلَهَا بِقَضِيبٍ، وَثُمَّ قَالَ لَهُ : وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا مَا يَمْنَعُكَ مِنْ خَوْلٍ فِي هَذَا الدِّينِ أَنَّكَ تَرَ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِيُوشِكَنَّ أَنْ تَرَى الْقَصُورَ الْبَابِلِيَّةَ مُفْتَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولِهِ فِي هَذَا الدِّينِ مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ الْبَابِلِيَّةِ تَحْجَّ هَذَا الْبَيْتَ عَلَى بَعِيرِهَا لَا تَخَافَ، لَذَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْفِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِيْنُهُمْ أَرْتَضَى لَهُمْ وَلَيَبْدَلُنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْقَهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥٥) ﴾

[سورة التور]

قال تعالى :

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعْكَ الْأَرْذُلُونَ (١١١) ﴾

[سورة الشعرا]

أن يكون المؤمنون فقراء ؛ هذا مانع، وأن يكون المؤمنون ضُعفاء هذا مانع ثاني، وأن يكون أداء المؤمنين ؛ هذا مانع ثالث، لكن أيها الإخوة، الحظوظ، فالمال والقوة حظ، فالدولة النبوية مرهوبة الجانب وقد لا تستخدم هذا السلاح إطلاقاً، والذكاء حظ والغنى حظ والحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابْتِلَاء و الدنيا مؤقتة إما أن تنجح، وإما أن لا تنجح، وكل إنسان فيما عطاوه له، وفيما منعه الله منه، بما مادة امتحان، فأنت مُمْتَحَنٌ مررتين، فيما أوتيت وفيما حُرِمت، فالواحد قد يُوقَف إلى زوجة صالحة، فهذا مُمْتَحَن هل يأخذ بها إلى الله أم يستمتع بها فقط ! وأخر لم يقدر على الزواج، هذه مادة امتحانه مع الله ؛ هل يعُفُ ؟ فالحظوظ ما أوتيت منها، وما حُرِمت منها هي مادة امتحانك مع الله، ولأن الله عز وجل يقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنَّ كُنَا لَمُبْتَدِئِينَ (٣٠) ﴾

[سورة المؤمنون]

لا بد من أن تُمْتَحَن ، والإمام الشافعي سُئل : أَنْدَعُوا الله بالابْتِلَاءَ أَمْ بِالْمُمْكِنِ ؟ فَقَالَ هَذَا الإِيمَانُ : لَنْ تُمْكَنَ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلَى ، فالسيارة لا يُتَصَوَّرُ أَنْ تُمْتَحَنَ بالهبوط ، وكذا المؤمن لا بد أن يُمْتَحَن ، قال تعالى :

﴿ لِيَهُكَمْ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾

[سورة الأنفال]

وقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعُكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَكَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَقَوَّلُو فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) ﴾

[سورة آل عمران]

فَاللَّهُ أَعْطَاكَ صِحَّةً، إِذَا مَادَةً امْتَحَانِكَ مَعَ اللَّهِ هَذِهِ الْأُخْرِيَّةِ، مَاذَا فَعَلْتَ بِهَذَا النَّشَاطِ؟ غَيْرِكَ عاجزٌ، وأَعْطَاكَ مَالًا، فَمَاذَا فَعَلْتَ بِهِ؟ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَبْدِي أَعْطَيْتُكَ مَالًا فَمَاذَا فَعَلْتَ بِهِ؟ فَيَقُولُ: مَا أَنْفَقْتَ مِنْهُ شَيْئًا مَخَافَةَ الْفَقْرِ عَلَى أَوْلَادِي مِنْ بَعْدِي، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي أَنَا الرَّزَاقُ نَوْ الْقَوْةُ الْمُتَّيْنِ؟ إِنَّ الَّذِي خَشِيتُهُ عَلَى أَوْلَادِكَ مِنْ بَعْدِكَ قَدْ أَنْزَلْتُهُ بِهِمْ! وَيَقُولُ لَاَخْرَ: عَبْدِي أَعْطَيْتُكَ مَالًا فَمَاذَا فَعَلْتَ بِهِ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبَّ، أَنْفَقْتُهُ عَلَى كُلِّ مُحْتَاجٍ وَمِسْكِينٍ، لِأَنَّكَ خَيْرٌ حَافِظًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: عَبْدِي أَنَا الْحَافِظُ لِأَوْلَادِكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَاللَّهُ يَتَوَلَّ أَوْلَادَ مَنْ فَعَلَ الْخَيْرَ، وَتَجَدُهُمْ بِمَنَاصِبٍ رَفِيعَةٍ وَلَوْ كَانُوا فِي حَيَاةِ أَبِيهِمْ لَمَّا أَمْنَ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ! دِرْهَمٌ تُتَفَقَّهُ فِي حَيَاتِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ دِرْهَمٍ بَعْدَ مَمَاتِكَ، وَلَقَدْ شَهَدْتُ أَرْبِعًا أَوْ خَمْسًا مِنَ الْوَصَائِلِ كُلُّهَا لَمْ تُتَفَدَّ، وَمِرْقَفُهَا، وَلَمْ يُوَافِقُوا عَلَى إِنْفَاقِ مَائَةِ أَلْفٍ عَلَى رُوحِ الْوَالِدِهِمْ، وَتَرَكُ لَهُمْ عَشْرِينَ مِلْيُونًا، فَلَا تَكُونُ تَحْتَ رَحْمَةِ إِنْسَانٍ قَدْ لَا يَرْحُمُكَ.

النقطة الثانية، أنَّ الْحُظُوطَ سُوفَ تُوزَّعُ فِي الْآخِرَةِ تَوْزِيعَ ابْتِلَاءٍ، فَلَوْ أَنَّ فَلَانًا غَنِيًّا، وَلَوْ مَعَهُ أَلْفٌ مِلْيُونٌ، فَالْقُدرَةُ عَلَى الْاسْتِمْتَاعِ مَحْدُودَةٌ، وَالسَّنَوَاتُ مَعْدُودَةٌ، فَإِذَا نَجَحَ فِي امْتَحَانِ الْغَنِيِّ وَذَلِكَ بِإِنْفَاقِهِ تَمَّتْ بِنَعِيمٍ مُقِيمٍ إِلَى أَلْبِ الْأَبِدِينَ، أَمَا إِذَا أَخْفَقَ صَارَ فِي جَهَنَّمَ إِلَى أَلْبِ الْأَبِدِينَ، فَالْأَمْتَحَانُ فِي الدُّنْيَا مَوْفَقَةٌ، وَهَذَا الْحَظُّ لَا يَعْنِي شَيْئًا، فَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْمَالَ لِمَنْ لَا يُحِبُّ؛ وَكَذَا الْقَوْةُ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ لَا يُعْطِيْهَا إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ، فَالْحُظُوطُ مُوزَّعَةٌ فِي الدُّنْيَا تَوْزِيعَ ابْتِلَاءٍ، وَفِي الْآخِرَةِ تَوْزِيعَ جَزَاءٍ، قَالَ تَعَالَى:

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلآخرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١)

[سورة الإسراء]

فَالْجَنْدِي مِثْلُ رَئِيسِ الْأَرْكَانِ! وَالْمُعْلِمُ الْابِدَائِي مِثْلُ رَئِيسِ جَامِعَةِ! مُمْرَضُ مِثْلُ جَرَاحِ القَلْبِ! مَرْتَبَةُ الدُّنْيَا لَا تَعْنِي شَيْئًا، وَقَدْ تَعْنِي الْعَكْسَ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

(( قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزِقَ كَفَافًا وَقَتَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ ))

[رواہ مسلم]

فَلِمَالَ وَسِيلَةٌ وَلَيْسَ غَايَةً، وَلَكِنْ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا غَايَةً، وَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ تَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ، فَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ بِنِصْفِ النَّهَارِ قُلْتُ مَا بَعَثَ إِلَيْهِ هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِشَيْءٍ سَأَلَ عَنْهُ فَسَأَلَتْهُ فَقَالَ سَأَلْنَا عَنْ أَشْيَاءَ سَمِعْنَاها مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

(( مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ وَجَعَلَ عَنَاهُ فِي قُلُوبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ))

[رواہ ابن ماجہ]

فَالْحُظُوطُ مُوزَّعَةٌ فِي الدُّنْيَا تَوْزِيعَ ابْتِلَاءٍ، وَفِي الْآخِرَةِ تَوْزِيعَ جَزَاءٍ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) ﴾

[سورة الإسراء]

الآخرة أبدية وتعني كل شيء، أما المرتبة في الدنيا مؤقتة ولا تعني أن الله يحبك.

والحمد لله رب العالمين